

## د. رؤوف عباس ومدرسة التاريخ الاجتماعي في العالم العربي

اهتم جيل الرواد من الأكاديميين المختصين بالكتابة التاريخية في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته بتعريب كتابة تاريخ العرب، والإفادة من الاتجاهات الحديثة في كتابة التاريخ، والتي تبلورت في أوروبا قبل نهاية القرن التاسع عشر، والتي لم يكونوا بمنأى عنها بحكم دراستهم بالخارج، وعلى أيدي أساتذة أجنبية.

مشروعه في أبنائه وتلاميذه الذين كان في طليعتهم رؤوف عباس، الذي لعب دوراً مهماً في التأسيس لاتجاه أصيل في كتابة التاريخ الاجتماعي .

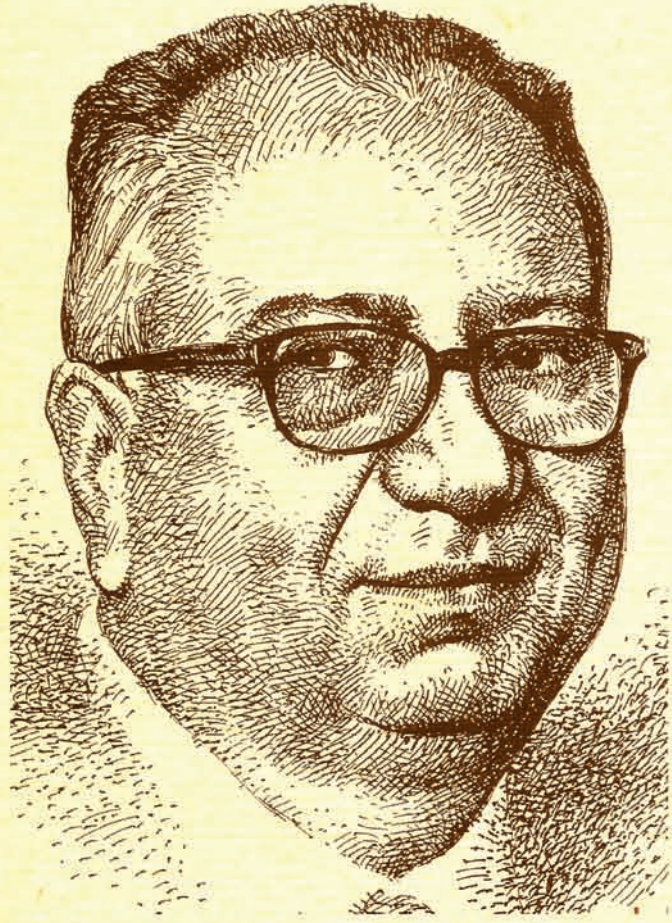
وقد شكلت ظروف كثيرة هذا الاتجاه عند رؤوف عباس، بعضها يعود للظرف التاريخي والمجتمعي الذي تكونت فيه إرادته البحثية.

وتجلت المحاولات المبكرة للإفادة في مصر بهذه الاتجاهات، في المحاولة التي قام بها محمد شفيق غربال للقفز علي ثوابت المدرسة التقليدية في كتابة التاريخ، عندما وجه بعض طلابه لدراسة موضوعات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، والذين كان من بينهم أحمد عزت عبد الكريم، الذي تحمل المهمة التي بدأها أستاذه، واستكمل

د.د. أحمد الشربيني

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب القاهرة

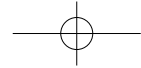
وبعضها الآخر يعود إلى انتمائه الاجتماعي والطبقي، حيث تزامن تخرجه في الجامعة في مطلع ستينات القرن العشرين، مع الانفتاح غير مسبوق على الفكر الاشتراكي الذي شهده المجتمع المصري والاتجاه نحو الاشتراكية، وصدور قوانين يوليو، عندما قرر نظام يوليو القيام بأعباء التنمية بنفسه، بعد أن أعيته محاولات إقناع الرأسمالية الأجنبية، والوطنية، بتحمل مسؤوليات التنمية والمشاركة في حل المسألة الاجتماعية المصرية، التي اعتبرها على رأس أولوياته. كذلك كان لانتماء رؤوف عباس الاجتماعي دور في تشكيل اهتماماته البحثية، خاصة انه اعتبر نفسه ابناً لطبقة في حاجة إلى من يدافع عن حقوقها ومصالحها، وزاد من ارتباطه بهذه الطبقة وعدم الانسلاخ عنها عمله بعد التخرج بالجهاز الوظيفي بإحدى الشركات الأجنبية التي كانت تعمل في إحدى المدن المصرية، وامتد إليها التأميم، حيث راقب تحركات العمال للمطالبة بحقوقهم والدفاع عن مصالحهم، ثم التحم بهذا النضال، بدرجة عرضته للمساءلة، والملاحقة. وبلغ وفاء رؤوف عباس لانتمائه الاجتماعي أنه عندما قرر كتابة سيرته الذاتية ؟ حتى بعد أن أصبحت آماله وطموحاته لا تلتقي مع هذه الطبقة - راح يفخر بأنه كان ابناً لجد وأب كانا يعملان بمصلحة السكك الحديدية. لهذا كان رؤوف عباس متسقاً مع ذاته عندما اختار موضوع « الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ 1952 ؟ » لدراسة الماجستير، بعد أن رأى أن نجاح تحرك عمال الشركة التي كان يعمل بها في إسقاط اللجنة النقابية، لم يأت



من فراغ بل كان ورائه بالضرورة خبرة نضالية، لا بد من الوقوف عليها.

ودراسة موضوع كهذا للماجستير عندئذ لم يكن بالشيء الهين، لأنه موضوع يتناول تاريخ طبقة، لديها تطلعات لتحسين ظروف عملها ومستويات معيشتها، بعد فترة تحملت فيها مسؤوليات مزدوجة - تمثلت في الدفاع عن مصالح الوطن- في مواجهة السلطان المطلق والإمبريالية الغربية، ومصالح العمال أنفسهم - وأصبحت تشكل ركيزة البناء





## أعلام ثقافية



وسياسة الاحتلال الزراعية، والسخره وأثارها الاقتصادية والاجتماعية، وصغار ملاك الأراضي الزراعيين، وهي موضوعات نحسبها في غاية الأهمية.

كذلك قاد رءوف عباس اتجاهها لاستعادة حقيقة ما حدث للمجتمع العربي خلال العصر العثماني؟ ثلاثة قرون؟ وإعادة رسم الصورة التي كان عليها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، عندما فتح المجال أمام مجموعة من الباحثين المصريين والمغاربية والأجانب لدراسة موضوعات في التاريخ الاجتماعي في العصر العثماني.

وفي السياق ذاته اهتم رءوف عباس بترجمة الأعمال العلمية التي عنت بتاريخ هذه الفترة، والتي تمثل انقلاباً على المقولات التي نعتت العصر العثماني بالتخلف والجمود، منها «تجار القاهرة في العصر العثماني» لنللي حنا، والتي انتهت إلى أن هذا العصر شهد مولد رأسمالية تجارية في المنطقة، أعادت بناء شبكتها التجارية العالمية الممتدة من ساحل الملبار بالهند إلى المدن الإيطالية بأوروبا وإلى السودان الغربي، وساهمت في تججير الزراعة وتنشيط صناعة السكر، وما ارتبط بذلك من تحولات اجتماعية وتغيرات في هيكل السلطة وتشابك المصالح بين رأس المال التجاري وبينها. ولعل هذا الدراسة كانت وراء اهتمام رءوف عباس بالبحث عن أسباب إخفاق الرأسمالية المصرية في تحقيق إنجازات في الشرق مماثلة لتلك التي حققتها الرأسمالية التجارية في أوروبا.

وهناك دراسات أخرى عن العصر العثماني اهتم رءوف عباس بترجمتها منها «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية ق 18 م» لنللي حنا، والتي طرحت مقولات من شأنها نسف مجموعة من الأفكار التي سادت بين المشتغلين بالتاريخ العثماني، عندما انتهت الي أن وجود رأسمالية تجارية بالمنطقة في العصر العثماني، والرخاء الناجم عن نشاطها، أدى إلى بروز طبقة وسطي حضرية، ارتكز وجودها على أسس اقتصادية واجتماعية واضحة، ولها ثقافتها المعبرة عن وجدانها ومصالحها، والتي اختلفت عن الثقافة الدينية السائدة. وبهذا تكون الدراسة قد صححت المقولات التي تمسك أصحابها بتقسيم المجتمع في العصر العثماني إلى



أن تلقي بالألى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية.

وتصدي رءوف عباس لدراسة الحركة العمالية، وكبار الملاك الزراعيين في مصر، في أطروحته للماستير والدكتوراه فتح أمامه أفق لمواصلة استكشاف الجوانب المختلفة للتاريخ الاجتماعي من خلال دراسات أخرى، تناولت في معظمها أبعاد المسألة الاجتماعية المصرية، والبدائل التي طرحت لحلها.

من هنا جاءت دراساته عن الحركة العمالية في ضوء الوثائق البريطانية، وحزب الفلاح الاشتراكي، وحياسة الأراضي الزراعية، ثم البحث في رؤى التنظيمات السياسية المصرية المختلفة لحل المسألة الاجتماعية، والتي بدأها بجماعة النهضة القومية لأهمية الأفكار التي طرحتها، لحل المسألة الاجتماعية، ولأنها قدمت نموذجاً فريداً للنقد الاجتماعي من داخل اطار النظام الليبرالي الذي عرفته مصر منذ دستور 1923 وحتى 1952.

واهتمام رءوف عباس بتأسيس اتجاه في كتابة التاريخ الاجتماعي في العصر الحديث، لم يتوقف عند حد اختياره الدقيق لموضوعات تخدم هذا الاتجاه، في إطار خطة علمية محكمة التنظيم، بل امتدت إلى مشروعات الماجستير والدكتوراه التي أشرف عليها، والتي اختيرت موضوعاتها بعناية فائقة حتى تخدم المشروع الذي كان يعمل في إطاره، حيث اهتمت الدراسات التي أشرف عليها بالكشف عن دور الموظفين الأجانب والمصريين في الإدارة المصرية، والاقتصاد المصري في ظل التبعية، واثر نظام الاحتكار وسقوطه في الاقتصاد المصري،

الاشتراكي في عصر الثورة. ولعل حساسية دراسة مثل هذا الموضوع في منتصف ستينات القرن العشرين هو ما حدا بالأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذي كان بصدد الإشراف على الرسالة إلى البحث عن أسباب تمسك رءوف عباس بدراسة هذا الموضوع، وما إذا كان هناك اتجاه سياسي معين وراء الإصرار عليه من عدمه، بيد أن رءوفاً اقتنع الأستاذ بأن الاختيار دوافعه علمية صرفة، وإن تجربة العمل على مقربة من العمال بإحدى الشركات المؤممة بكفر الزيات وراء هذا الاختيار. وعندئذ بارك الأستاذ المشرف الموضوع، الذي كان لقناعة رءوف عباس به أكبر الأثر في إعداده بهمة وإخلاص منقطع النظير، مما جعل الدراسة في النهاية تحظى بقبول فائق من المتخصصين في التاريخ، والمتقنين بشكل عام، كما أنها بشرت بمولد باحث متميز في التاريخ الاجتماعي وهذا ما عبر عنه أحد أعضاء لجنة المناقشة؟ الدكتور محمد أحمد أنيس - عندما استهل مناقشة الرسالة بالقول «لقد قدر لهذه القاعة أن تشهد مولد مؤرخ جديد من المدرسة الاجتماعية».

وإخلاقاً لهذا الاتجاه، اتجه رءوف عباس لدراسة الدكتوراه في موضوع «تطور الملكية الزراعية الكبيرة في مصر فيما بين عامي 1827 1914؟ ز وهي الفترة التي شهدت نشوء واستقرار، ونمو الملكيات الكبيرة، والتي كان نشوؤها ثورة أحدثت على المدى البعيد أثراً خطيراً في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمصر الحديثة. فبقدر نمو الملكيات الكبيرة اتسع خطرهما، حتى احتاج الأمر الي ثورة أخرى لتصحيح الأوضاع وإعادة الاتزان إلى البناء كله، ثورة لم يتنبأ رءوف عباس؟ في دراسته - أن يقوم بها فلاحون أو صغار الملاك، رغم التناقض الذي ترتب على تزايد وتركز الملكيات الكبيرة، لأنه تناقض لم يفض إلى صراع طبقي أو صراع اجتماعي بسبب انتشار الجهل بين الفلاحين، وضعف البرجوازية الصغيرة التي كانت الحلف الطبيعي لجماهير الفلاحين في تلك الفترة، وضعف الحركة التعاونية وحرص السلطات على وضع العراقل أمامها، وانصراف الأحزاب السياسية إلى قضية التحرر الوطني دون

رئاسة مجلس إدارتها، ومن قبل قسم التاريخ بأداب القاهرة عندما كان الرجل رئيساً له لفترتين متتاليتين، ونجح في تأسيس سيمينار للتاريخ، استقطب في وقت قصير كل المهتمين بالدراسات التاريخية بأحاء المحروسة بعد أن ذاعت شهرته في دقة التنظيم واختيار الموضوعات التي كانت تعرض في جلساته النصف شهرية. ولن أكون مبالغاً إذا قلت أن هذا السيمينار تأثر به قطاع كبير من الباحثين في التاريخ والحضارة ممن هم علي الساحة الآن. وعندما أدرك الرجل أن هناك اتجاهاً لتجفيف منابع السيمينار قرر نقله إلى مقر الجمعية التاريخية؟ وخيراً فعل؟ حيث قدر له أن يستمر ويتخصص في العصر العثماني بعد أن نمت على هامشه حلقات نقاش وسيمينارات أخرى متخصصة في تناول موضوعات مختلفة في التاريخ والحضارة.

هكذا جاءت دراسات رءوف عباس ومشاعره البحثية واهتماماته بالترجمة لأكثر من ثلاثين عاماً، في إطار رؤية لاستكشاف أبعاد التاريخ الاجتماعي، مما جعله أحد أبرز رواد مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر، والذي ستظل دراساته وخطه العلمية منطلقاً لدراسة كثير من الموضوعات لأجيال قادمة.

طبقتين، الأولى وتعرف بطبقة الخاصة وتضم أهل السلطة والحل والعقد ومن لاذ بهم من العلماء الكبار، أما الطبقة الأخرى فهي طبقة العامة وتشمل كل من عداهم من الناس بصرف النظر عن أوضاعهم المادية. وهو تقسيم يتسق مع مفاهيم «الاستبداد الشرقي» والمجتمع ما قبل الرأسمالي» و«المجتمع الخراجي» والذي لا يعترف بوجود طبقة وسطى.

وتمشياً مع هذا الاتجاه اهتم رءوف عباس بترجمة أعمال لباحثين أجانب، جاءت في إطار نظري غير مسبوق منها دراسة بيتر جران عن الجذور التاريخية للرأسمالية الإسلامية، ودراسة شارل عيساوي عن الهلال الخصيب، ودراسة الكسندر شولس عن أزمة مصر الاجتماعية والسياسية 1878 1882.

وقد تعدى التأثير الذي تركه رءوف عباس في مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر التأليف والإشراف علي الرسائل العلمية والترجمة الي المساهمة في تكوين جيل كامل من خلال ترتيب المؤتمرات وحلقات النقاش والسينماترات التي أجاد تنظيمها، والتي استقطبت شباب الباحثين في التاريخ والعلوم الاجتماعية، ويشهد بذلك الأداء العلمي المميز الذي تشهده أروقة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، منذ أن تولي

